

المراهقة - رفض وقبول

مقدمة: المراهقة هي مرحلة النمو Croissance بين مرحلة البلوغ Puberte ومرحلة الرشد Adulte. تبدأ هذه المرحلة بشكل عام (دون التكلم عن pseudopuberte (precoce) في سن 14 عند الشبان و12 عند الشابات. وعندما نتكلم عن النمو، لا بد لنا من إتباع ما هو معروف بالأوجه الأربعة للنمو:

- النمو الجسدي Physique

- النمو الفكري Intellectuel

- النمو الجنسي Sexuel

- النمو العاطفي Emotionnel

طبعاً، سنتاول بإيجاز هذه الأوجه الأربعة إلا أنني سأضيف عليها وجهاً خامساً إلا وهو النمو الروحي اي بالمعنى الإيماني الكنسي.

تعريف النمو:

بشكل عام، وبحسب علم الإجتماع، قد نتكلم عن نتبة تنمو، حيوان ينمو، إنسان ينمو، مجتمع ينمو، وبلد ينمو الخ...

لأن المفهوم المسيحي هناك دعوة أعمق الى النمو وهي واضحة منذ الخلق. من الصورة الى المثال. فقد خلقنا الله على صورته ودعانا للتشبه به، لذا الأصح القول على صورتنا كشبهنا، وليس على صورتنا وشبهنا.

من هنا كان قول بولس الرسول: نحن ننمو الى ملء قامة المسيح.

إذاً كل نمو هو عملية تحول "من" الى " ". Que ce soit morphologique ou

fonctionnel . وهي أيضاً عملية تزايد وإكتساب.

وهذا يمكن تطبيقه بشكل جلي في المسيحية: إذا كان أحد في المسيح فهو خليفة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً. (2كو 5:17)

ورجوعاً الى الصعيد البشري فليس من الضروري أن يكون النمو دائماً في الإطار الجيد والحسن، بل يمكن أن يكون نمو سيء. كالعادات السيئة والأخطاء والأهواء Passion والأمراض.

وتشكل كلها طبقات فوق طبقات يُلخصها العلم المختص في ذلك بالأشياء المكتسبة Aqoise بالإضافة الى المولودة والموروثة Innee. سنعود ونتكلم عن هذا الموضوع لاحقاً. ولكن سنكتفي الآن بالتعريف.

الوجود: L'existence

قبل الانتقال الى الأوجه الخمسة التي ذكرت سابقاً، لا بد لنا من تسليط الضوء على موضوع في غاية الأهمية وهو الوجود وحقه وتحدياته إن كان على الصعيد الشخصي الفردي النابع من الذات ومن حق إثبات الوجود والذي يمكن أن يتحول ودون ان ندري الى أكثر من تحدي الى تمرد، هذا من جهة أولى والى قبول ورفض من الجهة الأخرى أولاً على الصعيد الأولي أي العائلة ومن ثم على الصعيد العام أي المجتمع وهنا تتبلور ردة الفعل من قبل كل المعنيين.

كما تلاحظون، فهذا الموضوع كبير وواسع ولن أفتح الباب على مصراعيه بل سأرجع الى موضوع المراهق والمراهقة وونموه ووجوده.

1- النمو الجسدي: طبعاً هناك نمو على صعيد الهرمونات. ففي حوالي سنتين تقريباً، نشاهد تغيراً مفاجئاً وسريعاً وكبيراً عند المراهقة قبل المراهق. الطول، التكاوين، التقاسيم والصوت عند الشبان.

فتستيقظ العائلة لتجد في وسطها إنساناً حجمه كبير وهو ما زال في فكرها صغير، كما هو يجد نفسه أصبح كبيراً ولم يعد ذاك الطفل وصغير البيت، مع انه في ذاته يعرف جيداً انه ما زال بحاجة الى شيء منه.

فبيداء التجاذب. والتجاذب كبير ومزدوج. فهناك تجاذب خارجي وتجادب داخلي.

التجاذب الخارجي: وهو تجاذب بين العائلة والمراهق، بين المجتمع والمراهق،

والعكس صحيح، وهو مرتبط بشكل وثيق بالتجاذب الداخلي.

التجاذب الداخلي: ويدور على صعيدين:

1- تجاذب بين الفرد ونفسه: أي بين المراهق وذاته، فهو لا يريد أن ينفصل نهائياً، حتى لو إدعى ذلك، إلا في حالات إستثنائية يكون وضع المنزل فيه غير مستقر ومليء بالمشاكل، فعندها تطبق المثل المشهور: الأباء يأكلون الحصرم والأولاد يضرسون.

وفي كلاً الحالتين هناك إكتشاف جديد للمراهق وحياة جديدة وبالتالي وجود جديد

2- تجاذب بين العائلة وذاتها: فهي من جهة تفرح بهذا الكبير الجديد وهي طالما ما إنتظرت هذه اللحظات، ومن جهة أخرى هذا الكبير الجديد ما يزال صغيرها. فهذا النمو يفرح ويربك في نفس الوقت. وتتغير طرق التعامل بين عائلة وأخرى، وبين بيئة وأخرى، وهذا يكون ردة فعل من الطرفين: أي المراهق والاهل.

إذا هذا النمو يتطلب من الاهل أولاً وعي وإهتمام ومرافقة. فالمدرسة لا تكفي وحدها والمرافقة Accompagnement من قبل الأهل عنصر في غاية الأهمية، لا بل يشكل العنصر الأساسي والأول.

فتخيلوا لو أن الربّ يرافقتنا من بعيد، ولا يلامسنا في أفراحنا وأحزاننا، في صعبنا ومشاكلنا، في صعودنا وهبوطنا، فماذا كانت النتيجة وعن أي مرافقة وحضور إلهي في حياتنا كنا سنتكلم عنه، و عن أي سند وتعزية وقوة كنا سنأخذ في حياتنا؟. وخاصة أن اليوم يلعب الإعلام والتكنولوجيا عدا عن الرفقة دوراً كبيراً في ذلك، وحذار أن يملأه هو الفراغ والعطش الموجود عند المراهقين.

من هنا كان شعار كثير من الجمعيات التي تهتم بالمراهقين في أوروبا وأميركا:

Parents ou etes-vous?

2- النمو الفكري: لا شيء كبير على هذا الصعيد، وإن كان الجسم قد تغير وكبر إلا أن النمو الفكري ومعالجة الأمور الصعبة ليست بهذا القدر من النمو. فالشكل الخارجي لا يمثل الشكل الداخلي، فهذا يحصل تدريجياً، وهو طبعاً متعلق بالمحيط والعائلة وظروفها وتحمل المسؤوليات وبالمستوى الثقافي والتربوي.

وهنا لا بد من الإستشهاد بالمحلل النفسي المعاصر Jean Piaget الذي تكلم عن حس الإكتشاف والبحث الذي يتجلى بقوة عند المراهقين في هذا العمر بالرغم من إختلاف البيئة والمحيط وظروفه.

فهو يتكلم أن المراهق دخل في المرحلة الثانية Stade2 وهي مرحلة دقيقة جداً تكشف ما تلقفه الشخص في المرحلة الأولى السابقة وتحضر بالتالي الى المرحلة اللاحقة وهي المرحلة الثالثة Stade 3 .

وإذا طرحنا السؤال: على ماذا ينمو الفكر عند المراهق؟ لتعددت الأجوبة. ولكن لنحصرها في شقين:

1- **المدرسة:** في إحدى الأيام أتت مراهقة عند أمها تخبرها عن شيء منعت عنه في المدرسة. فإغتاضت الام وذهبت في اليوم التالي لتتكلم مع المسؤولة عن صف ابنتها. وفوجئت الأم من جواب المسؤولة اذ قالت لها: " لا تهتمي ياسيدة، لا شيء عندنا ممنوع في المدرسة." فمكان من الام في نهاية السنة الدراسية إلا أنها نقلت أولادها الثلاثة الى مدرسة أخرى وهي تقول: حلو الفلتان بس مش ها القد.

2- **الإعلام والتكنولوجيا:** قد قالت مارغريت ميد، الخبيرة في عم الإنسان: " احسبوا الساعات التي يشاهد فيها أولادكم التلفزيون، وأحسبوا فيها كم من مشهد عنف وجريمة وسوء يشاهد في الأسبوع. فلو فعلتم ذلك لسعقتم من الكم الهائل من الشر الذي يدخل الى أذهان أولادكم." واعقبت قائلة: هذا هو الجيل الذي ربته وسائل الإعلام بدل أن يربيّه ذووه".

وما تعجز هذه البرامج عن إفساده تكمله الألعاب العنيفة على الكمبيوتر

وأكملت مناشدة الأهل قائلة: " أحسنوا التمييز بين البرامج لتحفظوا أولادكم".

3- **النمو الجنسي:** وهذا أمر طبيعي. الأحاسيس، الهيجان، التعارف والتقارب.

فالجسم يبدأ بالإفرازات Pulsions sexuelles .

والحل ليس بقمعها ولا في تجاهلها. الحل في تنقيفها. التوعية هي باب الأمان.

فيقول الشيخ بورفير يوس: حدثوا أولادكم عن الجنس وعلموهم أن يهذبوا أعضائهم بفكر المسيح. وكلموهم عن الفلتان ومخاطره وابرزوا لهم ما هو جيد وحسن. ويشدد هذا الأب بقوله: كل شيء يجب أن يكون مرافقاً بالصلاة. لأن الصلاة تهذب الفكر والأحاسيس وتضبط التخيلات التي تؤدي الى تجارب شيطانية. ويكمل قائلاً: كلما ازداد الأولاد بالنمو، كلما ازدادت حاجة الأهل الى الصلاة أكثر. ذكروا أولادكم دائماً أنهم أبناء الله، وأن أجسادهم هي هياكل الروح القدس. هناك قصة عن أحد الأفارقة أنه كان دائماً يمشي وكتفاه الى الخلف ورأسه عال. أحد الناس سأل من يكون هذا الشاب؟ فأجابوه: "إنه ابن الملك ووالده يذكره دائماً بذلك" 4- النمو العاطفي: سأتوقف هنا عند أمرين:

- الأول: ما قاله المحلل النفسي الامريكي Stanly hall: المراهقة هي مرحلة يدخلها Stress العاطفي، وهو نتيجة الانتقال من مرحلة الى مرحلة.
- الثاني: المراهقة هي عبور من إنسان Dependant الى إنسان Independent. فمن الان وصاعداً هو سينظر الى الآخرين ويتعامل معهم بطريقة مختلفة.
- ملاحظة: يجمع الباحثين ان الإنفعال العاطفي يتغير بين مراهق وآخر، وهذا يتعلق بالطفولة وظروفها ومحيط وحالة وتوازن العائلة (غياب الأب-طلاق..) كان قد اجمع الكثير من القديسين في هذا الشرق وغربه أن التواتر إلى الكنيسة والإشتراك في نشاطاتها يؤمن التوازن المطلوب. فرفقة عن رفقة تفرق، وجوّ عن جوّ يؤثر كثيراً.

5- النمو الروحي: تبدأ تنشئة الأولاد من لحظة تكوينهم، فالجنين يسمع ويشعر وهو في أحشاء أمه. تضطرب الأم كذلك الجنين. تغضب الأم ويغضب الجنين أيضاً. تشعر الأم بالحزن، بالألم، بالخوف، بالقلق فيتأثر الجنين بكل هذا.

إذا رفضت الأم جنينها، إذا كرهته، يشعر الجنين بهذه الأحاسيس، فتتكون في نفسه الصغيرة جروحاً ترافقه مدى العمر.

والعكس هو الصحيح، فالفرح والشكر والتسبيح والصلاة الذي تعيشه الأم ينتقل إلى الجنين، فهذه الفضائل يتتعم فيها الجنين أيضاً.

لهذا يجب على الأم أن تصلي كثيراً خلال فترة الحمل وتشدو الحياة الروحية.

- حياة الأولاد داخل البيت الواحد:

من المنزل يمكن أن يخرج قديسين كما يمكن أن يخرج شياطين. فالحياة الصالحة تنشئ أولاداً صالحين والحياة السيئة تنشئ أولاداً سيئين.

فالفرح الذي يعيشه الأولاد في المنزل، وقفة الصلاة والإلتزام به يحصن البيت. من هنا يقول يسوع بن سيراخ: بركة الأب تثبت بيوت البنين. (9:3)

لنسمع ما يقوله بولس الرسول في هذا الموضوع: " وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره " (أفسس 4:6):

وفي كولوسي يقول: أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لكي لا يفشلوا (21:3).

فبعد أن تكلم بولس عن طاعة الأولاد لوالديهم، نراه يتوجه الآن إلى الآباء.

1- **إباء:** في اليونانية Pater. وهي نفس الكلمة التي تطلق على الله الآب وعلى

الآباء في الكنيسة. إذاً، لهذه الكلمة مدلول أوسع من أب وابنه. فهذه الكلمة بالتحديد تذكر الوالد أن أبوته هي على صورة الله، وكل تشويه لهذه الصورة ينعكس تلقائياً على صورة الله نفسه. فكم من مراهق يرفض الله في حياته لأنه لم يشاهد أمامه أباً صالحاً بكل معنى الكلمة. فلأب مسؤولية كبيرة يؤديها أمام الله وعائلته. هو مسؤول عن خلق جديد. وإذا كان الله قد بارك العائلة فلتكمل جسد المسيح الذي نحن أعضائه.

2- **الغضب:** وهو الذي يدفع الآخر إلى الغضب والإنحراف. فيقول أغسطينس في

ذلك: " التوبيخ يجب أن تسبقه الرحمة لا الغضب". وهذا ما يذكرنا بالرب يسوع عندما رأى الرجل المكلل بالسلاسل والمكبّل من الشيطان، نظر إليه

وغضب في قلبه عليه وليس منه. فلو غضب منه أو أغاظه لما إستطاع أن يرحمه ويحرره ويولده من جديد.

3- **أولادكم**: والكلمة المستعملة في اللغة اليونانية هنا هي Teknon وليس Ios. والفرق بين الإثنين كبير جداً. فالأولى تشير بكل وضوح أن الولد هو محتاج لأبيه ومحتاج لرعايته ويعتمد اليه بكل معنى الكلمة. فحسناً أن نعلم أولادنا طلب المساعدة من الله لأن سلطة الأباء هي على صورة الله.

4- **ريوهم**: الفعل باليونانية يحمل معنى عميق جداً: Trepho ويعني التغذية حتى البلوغ. فالغذاء الفاسد يعطي ثمراً فاسداً والعكس صحيح.

5- **بتأديب الربّ**: ومن أين يأخذ الأب منهج التربية، من الربّ يسوع نفسه، اليس هو المرَبّي الاول بإمتياز. (Le grand Pedagogue (Paizagogos).

فتأديب الربّ يختلف تمام الاختلاف عن تأديب الإنسان. أولاً، الله محبة. والذي يحب لا يعرف الكره ولا البغض ولا الإستغلال. وعندما يؤدبنا الربّ يؤدبنا بحكمة. وهدف التأديب هو الإصلاح. فالله دعانا جميعاً أن نصلح بعضنا بعضاً بروح الوداعة، لكي نبقى في البيت الواحد، لان المحبة تكمل الناموس. فقد كان الشيخ بورفيرْيوس ينصح الأهل دائماً بالصلاة المرافقة لتوبيخ أولادهم، وكان دائماً يسألهم: هل تصلّون بانتظام؟ وكان يكمل قائلاً: صلوا، صلوا وأطلبوا المعونة من الله.: الصلاة تدخل الى القلب.

6- **وإنذاره**: الإنذار هو لإرجاع الأمور لنصابها Nouthezia. فهّم الأب أن يبقي ابنه في بيت الأب. وإنذار الربّ يختلف تماماً عن إنذار الناس لبعضهم البعض، فالله لا يريدنا أن نخلي المكان بل على العكس أن نرث ملكوت الله. إننا نهتم بممتلكاتنا من أجل أبنائنا، أما أبنائنا أنفسهم فلا نبالي بهم قط. أية سخافة هذه؟ (القديس يوحنا الذهبي الفم).

خلاصة: كل هذا ليشير أن المنزل هو الخلية الأولى Foyer، وكم من مراقق يعكس صورة أهله دون أن يدري. لا تمر سنين الطفولة هكذا، بل على العكس كل إفراط في الدلع وكل إفراط في الصراخ وكل إفراط في سوء التربية، وعدم الحضور وعدم الإصغاء لأولادنا يجعل من المراقق في المنزل قنبلة موقوتة، ولا بد لهذه القنبلة من أن تنفجر.

لم يخطيء القديسون بقولهم: "قداسة الأهل أفضل تربية للأولاد". فلنبسط الأمر أكثر، سعي الأهل الى عيش كلمة الله يجعل المراقق في المنزل في أمان حتى لو تخطت في أمواج هذه الحياة. والإلفة على الصلاة وقرأة الكتاب المقدس في الصغر أنقذت ألوف الشبان والشابات. فحتى لو إبتعدوا بسن معين، وحتى ولو تاهوا، فسيرجعون لأن نفوسهم تربت على الإستقامة ولحظات السلام في المنزل لا تمحي من ذاكرتهم ابداً. يؤكد القديس يوحنا الذهبي الفم أن قرأة الكتاب المقدس وحياة القديسين تجعل العائلة تكون Christocentrique عوض أن تكون Anthropocentrique بحسب المفهوم الهليني أو Nomocentrique بحسب المفهوم اليهودي. أما اليوم، فنستعمل كلمة Mondocentrique اي بحسب العالم ومفاهيمه.

ختاماً: كل يوم هو نهار جديد، وكم هو جميل أن نتذكر أن عمل الله لم ينته مع أحد منّا بعد، بل لا يزال يعمل فينا مهما كانت الظروف والأحوال.

الله تجسد في حياتنا، فالنتجسد وإياه في حياة أولادنا لكي بدورهم يجسدوه في حياة أولادهم.

أمين